شرح الأربعين نووية

الحديث الرابع والعشرون .

[عن أبي ذر الغفاري رضي ا تعالى عنه عن النبي صلى ا تعالى عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه D أنه قال يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم : يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد ا ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] رواه مسلم .

قوله : [إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما] قال بعض العلماء : معناه لا ينبغي لي ولا يجوز علي كما قال تعالى : { وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا } فالظلم محال في حق ا تعالى قال بعضهم في هذا الحديث : لا يسوغ لأحد أن يسأل ا تعالى أن يحكم له على خصمه إلى بالحق بقوله سبحانه : [إني حرمت الظلم على نفسي] فهو سبحانه لا يظلم عباده فكيف يظن ظان أنه يظلم عباده لغيره ؟ وكذلك قال [فلا تظالموا] المعنى : المظلوم يقتص له من الظالم وحذفت إحدى التاءين تخفيفا أصله : فلا تتظالموا وقوله : [كلكم ضال إلا من هديته وكلكم عار إلا من كسوته وكلكم جائع إلا من أطعمته] تنبيه على فقرنا وعجزنا عن جلب منافعنا ودفع مضارنا إلا أن يعيننا ا سبحانه على ذلك وهو يرجع إلى معنى : لا حول ولا قوة إلا با وليعلم العبد أنه إذا رأى آثار هذه النعمة عليه أن ذلك من عند ا ويتعين عليه شكر ا تعالى وكلما ازداد من ذلك يزيد في الحمد والشكر تعالى وقوله : [فاستهدوني أهدكم] أي اطلبوا مني الهداية أهدكم والجملة في ذلك أن يعلم العبد أنه طلب الهداية من مولاه فهداه ولو هداه قبل أن يسأله لم يبعد أن يقول : إنما أوتيته على علم عندي وكذلك [كلكم جائع] إلى آخره يعني أنه خلق الخلق كلهم ذوي فقر إلى الطعام فكل طاعم كان جائعا حتى يطعمه ا بسوق الرزق إليه وتصحيح الآلات التي هيأها له فلا يظن ذو الثروة أن الزرق

الذي في يده وقد رفعه إلى فيه أطعمه إياه أحد غير ا تعالى وفيه أيضا أدب للفقراء كأنه قال : لا تطلبوا الطعام من غيري فإن هؤلاء الذين تطلبون منهم أنا الذي أطعمهم [فاستطعموني أطعمكم] وكذلك مابعده وقوله [إنكم تخطئون بالليل والنهار] في هذا الكلام من التوبيخ ما يستحي منه كل مؤمن وكذلك أن ا خلق الليل ليطاع فيه ويعد بالإخلاص حيث تسلم الأعمال فيها غالبا من الرياء والنفاق أفلا يستحي المؤمن أن لا ينفق الليل والنهار فإنه خلق مشهودا من الناس فينبغي من كل فطن أن يطيع ا فيه أيضا ولا يتظاهر بين الناس بالمخالفة وكيف يحسن بالمؤمن أن يخطئ سرا أو جهرا لأنه سبحانه وتعالى قد قال بعد ذلك : [وأنا أغفر الذنوب جمعيا] فذكر الذنوب بالألف واللام التي للتعريف وأكدها بقوله [جميعا] وإنما قال ذلك قبل أمره إبانا بالإستغفار لئلا يقنط أحد من رحمة ا لعظم ذنب ارتكبه .

قوله : [يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم] إلى آخره : فيه ما يدل على أن تقوى المتقين رحمة لهم وأنها لا تزيد في ملكه شيئا وأما قوله : [لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد] إلى آخره ففيه تنبيه الخلق على أن يعظموا المسألة ويوسعوا الطلب ولا يقتصر سائل ولا يختصر طالب فإن ما عند ا لا ينقص وخزائنه لا تنفد فلا يظن ظان أن ما عند ا يغيضه الإنفاق كمال قال A في الحديث الآخر [يد ا ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه] وسر ذلك أن قدرته صالحة للإيجاد دائما لا يجوز عليها عجز ولا قصور والممكنات لا تنحصر ولا تتناهى وقوله [إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر] هذا مثل قصد به التقريب إلى الأفهام بما نشاهده .

والمعنى : أن ذلك لا ينقص مما عنده شيئا والمخيط - بكسر الميم وإسكان الخاء وفتح الياء - : هو الإبرة وقوله : [إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد ا] يعني لا يسند طاعته وعبادته من عمله لنفسه بل يسندها إلى التوفيق ويحمد ا على ذلك وقوله [ومن وجد غير ذلك] لم يقل ومن وجد شرا يعني : ومن وجد غير الأفضل فلا يلومن إلا نفسه أكد ذلك بالنون تجذيرا أن يخطر في قلب عامل أن اللوم تستحقه غير نفسه وا أعلم